المقال الثالث

أحوال الأقباط تحت حكم محمد علي

مقدمة

بصفة عامة، حاول محمد علي في تعامله مع الأقباط إظهار روح التسامح تجاهم، وكذلك مساواتهم بالمسلمين، بالرغم من أنه كان يحتقرهم بسبب دينهم. وربما يرجع ذلك إلى أن محمد علي كان عليه البحث عن المنفعة أينما كانت- فقد كان تاجراً قبل أن يصير والياً. بمعنى أنه كان يحتاج إلى مهارة الأقباط الإدارية والمالية- التي كانوا يتميزون بها غيرهم- لبناء دولة حديثة. قال أحدهم إنه اتبع سياسة تسامح حذرة- تجاه الأقباط- وكانت مناداته قولاً وليس فعلاً؛ فقد بدأ حكمه بفرض غرامة على الأقباط قدرها200 ألف ريال، ليدفع المرتبات المقدرة لجنوده، كما دفع رشوة كبيرة (4000كيس) لقبطان باشا المُرسل من قبل السلطان العثماني ليرضى عنه ويتركه لحكم مصر- وقد حصل على مال الرشوة هذه من ثروة جرجس الجوهري أحد أغنياء الأقباط، الذي جرده من جميع أملاكه!!

في السطور التالية، نستعرض بعض الأمثلة عن روح التسامح التي اتصف بها تجاه الأقباط، وكذلك بعض المظالم التي وقعت عليهم في أثناء فترة ولايته.

القرارات الخاصة بالتسامح الديني

* إلغاء القوانيين السابقة الموضوعة بهدف إضطهاد المسحيين، مثل قانون الزي، الذي يفرض على الذميين- اليهود والنصارى- لبس أنواع وألوان معينة من الملابس لتمييزهم عن المسلمين.

وقد غضب المسلمون بسبب إلغاء قانون الزي، فصدر أمر إلى الأقباط سنة 1817م- كما يقول الجبرتي- بأن يلزموا زيهم الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض، لأنهم خرجوا عن الحد في كل شئ ويتعممون بالشالات الكشمير الملونة والغالية الثمن ويركبون الرهوانات والبغال والخيول وأمامهم وخلفهم الخدم.... ويلبسون الأسلحة.... الخ.

* إلغاء الجزية على بعض الأقباط بحكم عملهم في الحكومة- والتي كام يدفعها الأقباط منذ الفتح العربي لمصر سنة 641م، فمثلاً صدر أمرسنة 1831م خاص بالذين يعملون بترسانة الأسكندرية، جاء فيه:

" يقتضي إتباع الأصول المدونة بها وربط ماهية ومرتب الصنف الذي يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهادية( الجيش) لكونهم يؤدون مصالح الميري ومن اللازم رعايتهم ورفاهيتهم". ولكن لم تلغ الجزية نهائياً إلا بعد موت محمد علي بسنوات، وذلك في عهد سعيد باشا الذي ألغى الجزية المفروضة على أهل الذمة - منذ الفتح الإسلامي لمصر في ديسمبر سنة 1855م.

* حرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية.... وكذلك السماح ببناء كنائس جديدة وترميم القديم منها. أيضاً، ذكر مطران الكاثوليك أنه كان يتجول في أنحاء المدينة معلقاً صليب بحيث يراه الجميع ولم يحاول أحد سبه أو إهانته.
* زيارة الأراضي المقدسة كل عام .... وقد كان الأقباط في عهد المماليك يعانون صعوبات كثيرة للحصول على إذن للزيارة. وهناك وثيقة تعود إلى عام 1241هـ (1825م) يوصي فيها محمد علي متسلم غزة " بالقبط الذين يريدون الحج إلى القدس أن لا يدع لأحد مجالاً في التدخل في شئونهم". وهناك وثائق أخرى بعد هذا التاريخ، توصي متسلمي غزة والقدس بحماية الزوار الأقباط- الذين يذهبون كل سنة إلى القدس حاملين معهم قفص الشموع.
* تقلد الأقباط الكثير من الوظائف الإدارية والمالية، لعدم إستغناء الإدارة عنهم بسبب كفاءتهم وأمانتهم. أيضاً، هو أول حاكم مُسلم يمنح بعض الأقباط رتبة البكوية، ويتخذ من بعضهم مستشارين له. ويعتبر " باسيليوس" ابن المعلم غالي أول قبطي يحصل على رتبة البكوية، وقد عينه محمد علي مديراً لحسابات الحكومة المصرية.

بعض الأمثلة عن المظالم في عهده

* قام محمد علي بإرسال تسع بعثات علمية إلى أوربا... بلغ عددهم 319 طالباً، كلهم مسلمون ماعدا واحداً فقط من الأقباط!! وهو إبراهيم السبكي الذي كان من ضمن أفراد البعثة الخامسة سنة 1844م لدراسة الطب.

ويدافع المستشار طارق البشري عن اختيار محمد علي للمبعوثون إلى الخارج من المسلمين فقط بقوله إن الدين (الإسلامي ) لم يكن شرطاً للمبعوث إلى الخارج، بل الحاجة والضرورة إلى الخبرة الأجنبية، فقد كان الأقباط يشغلون الوظائف الإدارية ... الخ في الحكومة، ولم تكن هناك حاجة لخبرة أجنبية في مثل هذه الوظائف!

* كان محمد علي يكافئ الذين يعتنقون الإسلام بمبالغ مالية، ويعينهم في الوظائف الحكومية. كما يعاقب المسلمين المرتدين علانية، كما هو الحال في أيامنا الحاضرة- ويذكر أنه حكم على امرأة بالإغراق بسبب إرتدادها عن الإسلام وزواجها من مسيحي.
* بالطبع لم تكن المساواة كاملة بين المسلمين وغيرهم من الأديان الأخرى، فبعض الوظائف العليا مثل قيادة الجيش لا يتقلدها إلا المسلمين. لذا، حث محمد علي الجنرال " سيف" على إعتناق الإسلام حتى يتولى قيادة الجيش. وقد كان، وأصبح اسم الجنرال" سيف" بعد اعتناقه الإسلام " سليمان باشا". أيضاً، لم يكن مسموحاً للأقباط بدخول الجيش النظامي.

وقد ذكر الجبرتي إن محمد علي قال لعبود باشا، أحد كبار المباشرين النصارى وقد كان يحبه ويثق به- قال له لولا الملامة، لكنت قد قلدتك الدفتردارية ؛ المنصب الذي كان يشغله ابنه إبراهيم باشا.

* ورغم تبدل حال الأقباط إلى الأفضل في عهد محمد علي، إلا أن المساواة الكاملة- بالطبع- لم تتم؛ لا على المستوى الرسمي أو على المستوى الشعبي. ومثال ذلك الجو العام في دمياط، حيث الاضطهاد والاساءة إلى الأقباط تحدث على المستويين الرسمي والشعبي.

مثال ذلك: أن أحد الأشرار، اتهم المعلم إلياس أمام القاضي بأنه ضربه. فما كان من القاضي إلا أن استدعاه وخيره بين الجلد أو إعتناق الإسلام!! ونفس هذا الحكم ( الظالم) تعرض له باسيلي الخولي.... ويبدو أن هذا الحكم ( الجلد أو الإسلام) كان يتعرض له البعض من الأقباط، الذي يسوقهم حظهم العاثر للوقوف أمام أحد القضاة (المسلمين).

**المراجع:**

1. تاريخ مصر(5) تأليف المستر جورج يانج- مكتبة مدبولي.
2. تاريخ مصر (6) لعمر الاسكندري وسليم حسن- مكتبة مدبولي.
3. محمد علي باشا (عودة الذاكرة المصرية) لمنير غبور وأحمد عثمان- مكتبة مدبولي.
4. محمد علي لحسين كفافي- الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. الأقباط (النشأة والصراع) لملاك لوقا- مطبعة أنجيلوس.
6. وطنية الكنيسة القبطية للراهب القمص أنطونيوس الأنطوني- مكتبة المحبة.
7. تاريخ الكنيسة المصرية للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر- مكتبة المحبة.

الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي(2) إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) – مؤسسة اقرأ.